

النموذج التفسيري التكاملي للسلوك الإنساني في ضوء المقاصد الإسلامية: مقاربة نقدية في علم النفس الديني

The Integrative Interpretive Model of Human Behavior in the Light of Islamic Maqāsid: A Critical Approach in the Psychology of Religion

¹ د. عبد السلام زكريا ، جامعة حلب – كلية الاقتصاد – قسم إدارة الأعمال

slammm888@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/10/31 تاريخ القبول: 2025/11/10 تاريخ النشر: 2025/11/13

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى بناء نموذجٍ تفسيريٍّ تكامليٍّ للسلوك الإنساني يستند إلى المقاصد الإسلامية بوصفها منظومة معرفية وأخلاقية متكاملة تفسّر الفعل الإنساني في أبعاده المادية والعقلية والروحية والاجتماعية. جاءت فكرة البحث استجابة لحاجةٍ ملحّةٍ في العلوم الإنسانية إلى تجاوز النماذج الاختزالية التي هيمنت على الفكر النفسي الغربي، والتي عزلت البعد القيمي والروحي عن تحليل السلوك الإنساني.

اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي-النقدي المقارن في دراسة المفاهيم الأساسية في الفلسفة الإسلامية وعلم النفس، ومقارنتها بالنماذج الغربية الحديثة كالنظرية التحليلية لفرويد، والسلوكية لسكنر، والإنسانية لماسلو، والمعرفية لبليك. كما استخدمت منهج الاستنباط المقاصدي لاستخلاص المبادئ التي تسمح ببناء نموذج يدمج بين الوحي والعقل والتجربة في تفسير السلوك.

أظهرت النتائج أن المقاصد الإسلامية تقدّم إطاراً تفسيرياً غنياً للسلوك الإنساني يربط بين الدوافع والغايات والمعنى، ويعيد الاعتبار للإنسان بوصفه فاعلاً أخلاقياً حراً يسعى لتحقيق مقصده الوجودي. كما أكد البحث أن الفصل بين النفس والأخلاق في الفكر الغربي أفضى إلى قصورٍ معرفيٍّ، في حين أن النموذج الإسلامي المقاصدي يقدم رؤية تكاملية قادرة على تجديد علم النفس الديني ضمن أفقٍ قيميٍّ إنسانيٍّ.

كلمات مفتاحية: المقاصد الإسلامية، السلوك الإنساني، النموذج التفسيري التكاملي، علم النفس الديني، الفعل

Abstract:

The Integrative Interpretive Model of Human Behavior in the Light of Islamic Maqāṣid: A Critical Approach in the Psychology of Religion

Objectives:

This study aims to construct an Integrative Interpretive Model of human behavior grounded in the Islamic maqāṣid (objectives of Sharia), providing a holistic epistemological and ethical framework that explains human action across its material, cognitive, spiritual, and social dimensions. It responds to the pressing need in contemporary human sciences to transcend the reductionist paradigms of modern Western psychology, which detach moral and spiritual meaning from behavioral interpretation.

Methodology:

The study employs an analytical–critical comparative approach, examining foundational concepts in Islamic philosophy and psychology alongside major Western theories (Freud’s psychoanalysis, Skinner’s behaviorism, Maslow’s humanism, and Beck’s cognitive model). It also applies a maqāṣid-based deductive approach to integrate revelation, reason, and experience within a unified explanatory structure.

Findings:

The findings indicate that the maqāṣid paradigm offers a teleological understanding of human action where motives, intentions, and ethical purposes converge. It restores human freedom and moral accountability as central explanatory factors. The study further shows that separating the psychological from the ethical, as in Western models, leads to theoretical fragmentation.

Originality:

This model introduces an original epistemological synthesis bridging Islamic theology and modern psychology, providing a coherent framework for a renewed "psychology of religion" rooted in ethical and spiritual integration.

Keywords: Islamic maqāṣid, human behavior, integrative interpretive model, psychology of religion, moral action..

مقدمة:

يُعدّ السلوك الإنساني من أعقد الظواهر التي تناولها الفكر الإنساني والديني، إذ تتداخل فيه الدوافع الغريزية مع القيم الأخلاقية والمعاني الروحية في شبكة معقدة من العلاقات النفسية والاجتماعية.

ورغم التطور الكبير الذي شهده علم النفس الحديث خلال القرنين الأخيرين، فإنّ معظم نماذجه التفسيرية ظلت أسيرة للمنظور المادي الاختزالي الذي ينظر إلى الإنسان ككائن بيولوجي محكومٍ بالدوافع أو البيئة، متجاهلة أبعاده الغائية والقيمية التي تمنحه المعنى والاتجاه¹.

في المقابل، قدّم التراث الإسلامي رؤية متكاملة للإنسان؛ فهو عند الفلاسفة والمتصوفة والأصوليين كائنٌ غائيٌّ يسعى إلى تحقيق مقصده في إطارٍ من التوازن بين الروح والعقل والجسد، وهو ما يجعل السلوك الإنساني في التصور الإسلامي فعلاً مقصدياً ذا دلالة أخلاقية قبل أن يكون استجابة ميكانيكية للمؤثرات.

من هنا، تأتي أهمية هذا البحث في سعيه إلى تأسيس نموذجٍ تفسيريٍّ إسلاميٍّ يجمع بين الأصالة الدينية والمنهجية العلمية الحديثة، من خلال تفعيل المقاصد الشرعية كإطارٍ معرفيٍّ يمكن من خلاله إعادة بناء فهم السلوك الإنساني ضمن وحدةٍ منسجمة بين الغاية والتجربة والعقل.

مشكلة البحث

على الرغم من ازدياد الاهتمام في العقود الأخيرة بما يُعرف بـ«علم النفس الإسلامي» و«الروحانيات في العلاج النفسي»، فإنّ معظم هذه الجهود ظلّت جزئية أو توفيقية، لأنها لم تنطلق من إطارٍ تفسيريٍّ أصيلٍ يدمج البعد الروحي بالأخلاقي ضمن نسقٍ علميٍّ متكامل، بل اكتفت بإضافة اللفظ الديني إلى النماذج الغربية القائمة².

ويتمثل جوهر الإشكالية في غياب نموذجٍ تفسيريٍّ شاملٍ للسلوك الإنساني يستند إلى الرؤية المقاصدية الإسلامية، ويستوعب في الوقت نفسه مكتسبات العلوم النفسية الحديثة.

¹ فرويد، تفسير الأحلام، ترجمة مصطفى صفوان (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1986)، ج 1، ص 55.

² محمد عثمان نجاتي، علم النفس في ضوء الإسلام (الرياض: دار الشروق، 1993)، ص 22.

وانطلاقاً من ذلك، فإنَّ السؤال المركزي الذي يحاول هذا البحث الإجابة عنه هو:

كيف يمكن بناء نموذجٍ تفسيريٍّ تكامليٍّ للسلوك الإنساني يستند إلى المقاصد الإسلامية ويتكامل مع مناهج علم النفس الديني المعاصر؟

ويتفرّع عنه عدداً من الأسئلة الفرعية، من أهمها:

1. ما أوجه القصور في النماذج التفسيرية الغربية للسلوك الإنساني؟
2. كيف يمكن للمقاصد الإسلامية أن تُسهم في تفسير الفعل الإنساني وتوجيهه؟
3. ما حدود التكامل الممكن بين المنظور المقاصدي والعلوم النفسية الحديثة؟
4. ما ملامح النموذج التفسيري التكاملي المقترح الذي يجمع بين الأصالة الدينية والمنهجية العلمية؟

فرضيات البحث

ينطلق البحث من مجموعة فرضياتٍ رئيسة، أبرزها:

1. أنَّ النماذج الغربية لتفسير السلوك الإنساني (كالتحليلية والسلوكية والإنسانية) قامت على افتراضاتٍ ماديةٍ اختزالية، أهملت البعد الغائي والأخلاقي للفعل الإنساني.
2. أنَّ المقاصد الإسلامية تمثل إطاراً معرفياً وقيمياً متكاملًا يمكن أن يقدم بديلاً تفسيرياً للسلوك، يقوم على وحدة الوحي والعقل والتجربة.
3. أنَّ بناء نموذجٍ تفسيريٍّ تكامليٍّ مستندٍ إلى المقاصد يمكن أن يسهم في تأسيس علم نفسيٍّ دينيٍّ معاصرٍ يعالج التمزق القائم بين العلم والقيمة، والروح والجسد، والفكر والعمل.

أهداف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق مجموعةٍ من الأهداف النظرية والمنهجية، منها:

1. تحليل نقدي للنظريات الغربية المفسّرة للسلوك الإنساني، وبيان أوجه قصورها المعرفي والقيمي.
2. استخلاص المفاهيم المقاصدية ذات الصلة بالسلوك الإنساني من القرآن الكريم والسنة النبوية وأعمال الأصوليين والمقاصديين.

3. بناء نموذجٍ تفسيريٍّ تكامليٍّ يدمج بين الدوافع النفسية والغايات الأخلاقية والمقاصد العليا للشرعة.

4. اقتراح إطارٍ معرفيٍّ جديدٍ لعلم النفس الديني، يستند إلى الرؤية الإسلامية في فهم الإنسان والعالم والسلوك.

5. المساهمة في تجديد الدراسات البينية بين العلوم الشرعية والإنسانية من منظورٍ مقاصديٍّ نقديٍّ متوازن.

منهج البحث وأدواته

لتحقيق هذه الأهداف، اعتمدت الدراسة مزيجاً من المناهج العلمية المكتملة، أبرزها:

1. المنهج التحليلي – النقدي: لتحليل النصوص والنظريات الغربية ومناقشتها في ضوء المفاهيم الإسلامية.

2. المنهج المقارن: لإبراز أوجه التلاقي والاختلاف بين المقاربة المقاصدية والمقاربات النفسية الحديثة⁴.

3. المنهج الاستنباطي المقاصدي: لاستخراج الأصول النظرية للسلوك الإنساني من النصوص الشرعية ومقاصدها العامة.

4. المنهج التركيبي البنائي: لبناء نموذجٍ تفسيريٍّ موحدٍ يدمج بين المعطيات الشرعية والتجريبية

حدود البحث ومجالاته

يركّز هذا البحث على الجانب النظري التفسيري للسلوك الإنساني دون الخوض في التطبيقات الإكلينيكية أو التجريبية. وهو يقتصر على المقاربة المقاصدية دون غيرها من المدارس الإسلامية (كالإشراقية أو العرفانية) لكونها أكثر اتساقاً مع المنهج العلمي التحليلي المعتمد في البحث الأكاديمي الحديث.

ويستهدف البحث تقديم نموذجٍ معرفيٍّ عامٍّ يمكن تطويره لاحقاً في الدراسات التطبيقية في مجالات علم النفس الديني، والتربية، والإدارة، والسلوك التنظيمي.

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي للنموذج التفسيري التكاملي للسلوك الإنساني

يُعدّ النموذج التفسيري أداة معرفية تهدف إلى فهم الظواهر وتحليلها ضمن نسقٍ من الفروض والمبادئ التي تربط بين الأسباب والنتائج، وتوفّر رؤية منهجية يمكن من خلالها تفسير السلوك الإنساني والتنبؤ به.³

أولاً: مفهوم "النموذج التفسيري" في الفكر العلمي

يختلف "النموذج" جوهرياً عن "النظرية"؛ فالنموذج - في الاصطلاح العلمي - يمثل إطاراً تصورياً مرناً يُستعمل لتفسير الظواهر وتوجيه البحث، بينما تُعدّ النظرية بناءً أكثر تجريداً وثباتاً يضمّ فروضاً قابلة للاختبار المتكرر.⁴ وبذلك، فإنّ ما يقدّمه هذا البحث ليس "نظرية" مكتملة بالمعنى الإستمولوجي، بل نموذج تفسيري تكاملي مفتوح للتطوير، يُسهم في توجيه البحث في علم النفس الديني نحو مقارنة مقاصدية غائية.

في الفكر الغربي الحديث، ارتبط مفهوم النموذج بما يُعرف بـ"الباراداييم" (Paradigm) عند توماس كون، الذي يرى أن العلم يتقدّم ضمن أطر تفسيرية تحدّد نوع الأسئلة المقبولة وطبيعة الإجابات الممكنة.⁵ أما في الفكر الإسلامي، فالمقاربة التفسيرية لا تقوم على الحتمية أو النسبية، بل على الغائية والتوحيد، أي ربط المعرفة بالسياق الأخلاقي والغاية الوجودية للفعل الإنساني.

ثانياً: معنى "التفسير" في الرؤية الإسلامية

يتميّز مفهوم "التفسير" في الفكر الإسلامي عن نظيره في العلوم الوضعية. فالتفسير في المنهج التجريبي يُعنى بالكشف عن العلاقات السببية بين الظواهر، أما في الرؤية الإسلامية فهو غائيّ مقاصديّ، يهدف إلى بيان الحكمة والغاية من الفعل الإنساني لا مجرد سببه.⁶

³ كوبر، جون. منطق العلم الحديث، ترجمة محمود قاسم (القاهرة: دار الفكر العربي، 1992)، ص 73.

⁴ ليتون، توماس. فلسفة العلم: من النموذج إلى النظرية، ترجمة عبد العزيز العبد اللطيف (الكويت: عالم المعرفة، 2004)، ص 44.

⁵ Thomas Kuhn, The Structure of Scientific Revolutions (Chicago: University of Chicago Press, 1962), p. 15.

⁶ القرضاوي، يوسف. مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية (القاهرة: مكتبة وهبة، 1996)، ص 119.

النموذج التفسيري التكاملي للسلوك الإنساني في ضوء المقاصد الإسلامية: مقارنة نقدية في علم النفس الديني

وقد ميّز علماء الإسلام بين "العلة" و"الحكمة": فالعلة تُظهر كيف يحدث الفعل، أما الحكمة فتبيّن لماذا يحدث.⁷

وهذا، يصبح التفسير في المنظور الإسلامي تفسيراً بالقصد والمعنى، لا بالآلية فقط. وهو ما يجعل المقاصد إطاراً مناسباً لتحليل السلوك الإنساني من زاوية غائية أخلاقية، تنظر إلى الإنسان كفاعلٍ مسؤولٍ لا ككائنٍ منقادٍ لحتمياتٍ ماديةٍ أو بيئيةٍ.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7-8]. فهذه الآية تُبرز الطبيعة الثنائية في النفس الإنسانية، وتدلّ على أنّ الفعل البشري ناتجٌ عن وعيٍ واختيارٍ أخلاقي، لا عن استجابةٍ ميكانيكيةٍ.

ثالثاً: مبدأ التكامل في تفسير السلوك الإنساني

يقوم مبدأ التكامل على النظر إلى الإنسان باعتباره وحدة متكاملة تتفاعل فيها الجوانب الجسدية والعقلية والروحية في إطارٍ متناسقٍ، فلا يُفصل العقل عن الإيمان، ولا الجسد عن الروح، ولا العلم عن القيم.⁸

وقد ظلّت النظريات النفسية الغربية – رغم عمقها التجريبي – أسيرةً للتجزئة الاختزالية، فالسلوكية حصرت الإنسان في الاستجابة الملاحظة، والتحليلية في اللا شعور، والإنسانية في الدافعية الذاتية، والمعرفية في التفكير العقلي، بينما أغفلت البعد القيمي الروحي الذي يمنح السلوك معناه.⁹ أما الرؤية الإسلامية فتري أن التوازن بين هذه الأبعاد هو أساس الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها. قال تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30].

فالفطرة هنا ليست مجرد ميلٍ طبيعي، بل هي نظامٌ تكامليٌّ يربط بين الحقيقة والقيمة.

رابعاً: المقاصد بوصفها أساساً لتفسير السلوك

⁷ الغزالي، أبو حامد. المستصفى من علم الأصول (بيروت: دار الكتب العلمية، 1993)، ج 1، ص 24.

⁸ ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، 1979)، ج 5، ص 45.

⁹ بيبك، آرون. العلاج المعرفي والاضطرابات الانفعالية، ترجمة عبد الستار إبراهيم (القاهرة: عالم الكتب، 1993)، ص 94.

المقاصد الإسلامية تمثل منظومة قيمية عقلانية متكاملة، لا تقتصر على التشريع بل تمتد لتفسير الفعل الإنساني ضمن بعده الغائي. فكل سلوك بشري لا يفهم إلا في ضوء غاياته ومآلاته، وهي التي تشكل أساس التمييز بين الصواب والخطأ، والرشاد والانحراف¹⁰.

وقد عبّر الإمام الشاطبي عن ذلك بقوله:

"وضع الشرع لمصالح العباد في العاجل والأجل على وجهٍ يُحقّق صلاحهم العام"¹¹. فالمقاصد إذا ليست مفهوماً فقهياً محضاً، بل نظريةٌ تفسيريةٌ تُبرز العلاقة بين الدوافع النفسية والقيم الأخلاقية. فهي التي تمنح الفعل الإنساني معناه وتحدد وجهته نحو الخير العام.

خامساً: تعريف النموذج التفسيري التكاملي المقترح

بناءً على ما سبق، يمكن تعريف النموذج التفسيري التكاملي للسلوك الإنساني بأنه: إطار معرفي ومنهجي يسعى إلى فهم الفعل الإنساني وتفسيره في ضوء تكامل الأبعاد الجسدية والعقلية والروحية، ضمن منظومة مقاصدية تربط بين الدافع والغاية والمعنى، مستنداً إلى وحدة الوحي والعقل والتجربة. ويمتاز هذا النموذج بما يلي:

1. شموليته: إذ يتعامل مع الإنسان في كليته دون تجزئة.
2. غائيته: لأنه يربط كل سلوك بمقصده الأخلاقي.
3. مرونته العلمية: لكونه إطاراً مفتوحاً قابلاً للنقد والتطوير.
4. اتساقه المنهجي: إذ يجمع بين الأدلة الشرعية والمعارف التجريبية في بناءٍ متوازنٍ.

سادساً: المستويات التفسيرية في النموذج

يقترح هذا الإطار أربعة مستويات مترابطة لتفسير السلوك الإنساني:

1. المستوى المعرفي: ويمثل وعي الإنسان بالقيم والمعاني الموجّهة لأفعاله.
2. المستوى الوجداني: ويتعلق بالنية والإخلاص والدافع الباطن للفعل.

¹⁰ نجم الدين الطوفي، شرح مختصر الروضة (الرياض: مكتبة العبيكان، 1997)، ج 2، ص 278.

¹¹ الشاطبي، الموافقات، ج 2، ص 9.

3. المستوى السلوكي: وهو المظهر العملي للفعل في الواقع الاجتماعي.

4. المستوى المقاصدي: الذي يضبط الاتجاه العام للفعل نحو الخير والغاية الإلهية.

وعليه، يصبح السلوك الإنساني - وفق هذا النموذج - بنية مقاصدية متفاعلة يتداخل فيها الإدراك والدافع والغاية، ضمن رؤية توحيدية تجعل الإنسان فاعلاً أخلاقياً مسؤولاً، لا مجرد موضوعٍ للتحليل التجريبي.

المبحث الثاني: الجذور الإسلامية للنموذج التفسيري التكاملي للسلوك الإنساني

أولاً: الأساس القرآني للتكامل الإنساني

يُقدّم القرآن الكريم رؤية متكاملة للإنسان من حيث الخلق والوظيفة والمسؤولية، فهو مخلوقٌ مكرّمٌ من جهة، ومكلفٌ مسؤولٌ من جهةٍ أخرى، كما في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]،

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا... وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: 72].
تُعبّر هذه الثنائية بين الكرامة والتكليف عن جوهر الرؤية القرآنية للسلوك الإنساني: إذ تجعل من الإنسان كائنًا حرّاً ذا مسؤولية أخلاقية، لا مجرد نتاج لمثيرات خارجية أو دوافع غريزية.

كما أنّ القرآن يؤكد وحدة البنية الإنسانية، فيدمج بين النفس والعقل والروح في نظامٍ واحدٍ متناسقٍ:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7-8].

فالإنسان - وفق هذا المنظور - يحمل في ذاته استعداداً للخير والشر، وتكمن مسؤوليته في اختياره المقاصدي الذي يوجّه فعله نحو أحد الطرفين¹². ومن هنا، يكون السلوك في الإسلام فعلاً غائياً واعياً، مرتبطاً بالنية والمقصد، لا مجرد استجابة بيولوجية أو بيئية.

ويبرز القرآن أنّ غاية الوجود الإنساني تتجاوز الإشباع المادي إلى تحقيق العبادة وال عمران الأخلاقي، كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

¹² الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية (تونس: الدار التونسية للنشر، 1978)، ص 54.

إنّ هذا البعد الغائي في الرؤية القرآنية يجعل المقاصد إطاراً لفهم السلوك من حيث الغاية والمعنى، لا من حيث الحركة أو الدافع وحده.

ثانياً: الأساس النبوي: السنة كمصدر تطبيقي للتفسير المقاصدي

تأتي السنة النبوية مكملّة للرؤية القرآنية ومُجسّدة للنموذج الإنساني الكامل في الفعل والسلوك، إذ يظهر فيها التكامل بين البعد الداخلي والخارجي للفعل، وبين النية والعمل، وبين الفرد والمجتمع. فقد قال النبي ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى" (رواه البخاري)¹³.

وهذا الحديث يضع الأساس لربط النية بالمقصد بوصفهما مركز التفسير في الفعل الإنساني؛ فالقيمة لا تُقاس بالنتيجة المادية بل بالمقصد الأخلاقي.

وقال ﷺ أيضاً: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" (رواه البخاري ومسلم)¹⁴.

فالقلب في المفهوم النبوي ليس عضواً فسيولوجياً فحسب، بل مركز الإدراك الروحي والأخلاقي الذي يوجّه الفعل الإنساني.

كما أرشد إلى التوازن التكاملي بين الحقوق المختلفة بقوله ﷺ: "إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ" (رواه البخاري)¹⁵. وهذه القاعدة النبوية تمثل جوهر التكامل المقاصدي الذي يوازن بين الجسد والروح، وبين الدنيا والآخرة، وبين الذات والآخر.

ثالثاً: الجذور الفكرية في التراث الإسلامي

شهد التراث الإسلامي تعدداً في المقاربات التفسيرية للسلوك الإنساني، يمكن تصنيفها في ثلاث اتجاهات فكرية رئيسة:

1. الاتجاه الأخلاقي – المقاصدي:

¹³ البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 1.

¹⁴ مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساقاة، حديث رقم 1599.

¹⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصوم، حديث رقم 1968.

برز في أعمال أبي حامد الغزالي، خصوصاً في إحياء علوم الدين وميزان العمل، حيث قدّم تصوراً دقيقاً للنفس بوصفها جوهرًا يتوسط بين الغرائز والعقل، وأنّ السلوك الصالح نتيجةٌ للتركيبية التي تُعيد التوازن بين قوى النفس الثلاث: الشهوة والغضب والعقل¹⁶ وقد وسّع الإمام الشاطبي هذا الفهم ليشمل البعد الاجتماعي، مؤكداً أنّ المقاصد العامة للشريعة تهدف إلى وهي أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والأجل معاً وحفظ النظام الإنساني واستدامة صلاحه، وأنّ السلوك لا يكون راشداً إلا إذا تحقّقت به المصلحة العامة¹⁷

2. الاتجاه الفلسفي – المعرفي:

تناول ابن سينا النفس بوصفها جوهرًا روحانيًا ذا مراتب، واعتبر اكتمال الإنسان مرهوناً بسيطرة العقل على الغرائز¹⁸. أما ابن رشد فربط السلوك الإنساني بالعقل العملي الذي يوجّه الفعل نحو الخير والفضيلة¹⁹، مؤكداً أن الأخلاق علمٌ بالغايات قبل أن تكون علماً بالوسائل.

3. الاتجاه الروحي – الإحساني:

عند ابن القيم والجنيّد وأبي طالب المكي، يُنظر إلى السلوك بوصفه رحلة تركيبيّة ترتقي بالنفس من الرغبة إلى القصد، ومن الفعل إلى النية. يقول ابن القيم في مدارج السالكين: "السير إلى الله سيران: سيرٌ بالجوارح إلى طاعته، وسيرٌ بالقلب إلى محبته"²⁰. وهذا الدمج بين البعد العملي والروحي يجسّد جوهر الفهم التكاملي للسلوك الإنساني في التصور الإسلامي.

رابعاً: التأسيس للمقاصدي للنموذج التكاملي

¹⁶ الغزالي، إحياء علوم الدين (بيروت: دار المعرفة، 1988)، ج 3، ص 212.

¹⁷ الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج 2، ص 9.

¹⁸ ابن سينا، الشفاء: النفس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983)، ص 142.

¹⁹ ابن رشد، تهاافت التهاافت (بيروت: دار الفكر، 1982)، ص 97.

²⁰ علّال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها (الرباط: دار الغرب الإسلامي، 1993)، ص 112.

تتضافر هذه الجذور القرآنية والحديثية والفكرية لتؤسس ما يمكن تسميته بـ "الرؤية المقاصدية الشاملة للإنسان"، التي ترى في الفعل الإنساني عملاً ذا مقصدٍ غائيٍّ يسعى إلى تحقيق العبودية لله تعالى وإعمار الأرض بالحق والعدل.

فالمقاصد في هذا السياق لا تُعدّ أداةً فقهيةً فحسب، بل منهجاً تفسيريّاً يمكن من خلاله تحليل الدوافع والنيات والاختيارات الإنسانية في ضوء سلمٍ غائيٍّ يبدأ بالضروريات وينتهي بالتحسينات²¹ ويُعيد هذا التأصيل المقاصدي ترتيب فهم السلوك الإنساني وفق مبدأ الغائية الأخلاقية؛ فالسلوك لا يُقيّم بنتيجته فحسب، بل بمقصده ونيته وأثره في تحقيق الخير العام. وبذلك يصبح النموذج التفسيري التكاملي امتداداً طبيعياً للرؤية الإسلامية التي توحد بين المعرفة والقيمة، والعقل والوحي، والغاية والوسيلة.

المبحث الثالث: المقاصد كإطار لتفسير السلوك الإنساني

أولاً: من المفهوم التشريعي إلى المفهوم التفسيري للمقاصد

تُعدّ المقاصد الشرعية من أعظم ما أبدعه الفكر الأصولي الإسلامي، إذ مثّلت جسراً معرفياً بين النص والواقع، وبين الحكم والغاية، فانتقلت الشريعة من مستوى الأحكام الجزئية إلى مستوى الرؤية الكلية المنظمة للحياة الإنسانية²². وقد عرّفها الإمام الشاطبي بأنها:

"المعاني والحكم التي راعاها الشارع في جميع أحكامه أو أكثرها، تحقيقاً لمصالح العباد ودفعاً للمفاسد عنهم."²³

لكنّ المقاصد، من منظور هذا البحث، لا تقتصر على البعد التشريعي، بل تتجاوز ذلك لتغدو منهجاً معرفياً وتفسيرياً لفهم السلوك الإنساني لأنها تُعبّر عن رؤية الإسلام للإنسان بوصفه كائناً ذا مقصدٍ وغايةٍ، تتحكم في توجيه أفعاله واختياراته.

فهي ليست فقط "حكمة الشارع" في التشريع، بل أيضاً "منهج الإنسان" في السلوك، إذ توجّه الدوافع وتنظّم الغايات وتُقيم التوازن بين الحاجات الفردية والمصالح الكلية²⁴.

²¹ ابن القيم، مدارج السالكين (بيروت: دار الكتاب العربي، 1996)، ج 1، ص 73.

²² عبد الله بن بيه، فقه الموازنات (أبوظبي: مجمع الفقه الإسلامي، 2015)، ص 25.

²³ الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج 2، ص 9.

ثانياً: المنظور المقاصدي لطبيعة الإنسان

ينطلق الفكر المقاصدي من مسلمة جوهرية مفادها أن الإنسان مخلوقٌ مكرَّمٌ عاقلٌ مختار، وأن غايته تحقيق العبودية لله ضمن توازنٍ بين مصالحه الدنيوية والأخروية²⁵. وبناء عليه، فإن المقاصد تُقدِّم خريطة تفسيرية شاملة لطبيعة السلوك الإنساني من خلال ثلاثة أبعاد مترابطة:

1. البعد الوجودي:

تنظر المقاصد إلى الإنسان باعتباره جزءاً من نظامٍ كونيٍّ غائيٍّ تتحرك مكوناته وفق سننٍ لتحقيق الخير العام. ومن ثم، لا يُفهم السلوك إلا في ضوء موقعه ضمن هذا النظام الكوني.

2. البعد النفسي:

تقرّ المقاصد بتعدد دوافع الإنسان بين الضروريات والحاجيات والتحسينات. فالفعل الإنساني يتدرج من إشباع الحاجات الأساسية إلى تحقيق السمو الأخلاقي والجمالي²⁶، وهذا التسلسل ذاته يمثل منطقاً تفسيريّاً للدافع والسلوك.

3. البعد الأخلاقي

تُخضع المقاصد السلوك الإنساني لميزانٍ قيميٍّ يُحدّد الصواب والخطأ وفق معيار الغاية والمآل. يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97].

فالسلوك الصالح هنا يعيد التوازن للنفس لأنه منسجم مع الفطرة والمقصد الإلهي من الوجود.

ثالثاً: المقاصد كنظام تفسيري للدوافع الإنسانية

في علم النفس الغربي، تُفسّر الدوافع الإنسانية بطرائق متباينة:

- فرويد جعلها غرائزية جنسية وعدوانية.

²⁴ الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص 47.

²⁵ علّال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها (الرباط: دار الغرب الإسلامي، 1993)، ص 71.

²⁶ الشاطبي، الموافقات، ج 2، ص 10.

• سكر عدّها استجابات شرطية قابلة للقياس.

• ماسلو صنفها وفق هرم الحاجات.

غير أن هذه التفسيرات – رغم عمقها التجريبي – تظل محصورة في البعد المادي، لأنها تفصل بين الحاجة والمعنى.

أما المنظور المقاصدي، فيقدّم تصورا أكثر شمولاً: فالدوافع تتدرج من المادي إلى الروحي، وتشمل دوافع البقاء، والانتماء، والمعرفة، والكمال، وكلها تتكامل في مقصد واحد هو تحقيق العبودية لله²⁷ وبذلك تتحول المقاصد إلى إطار تفسيري للدوافع، يعيد ترتيبها وفق سلمٍ قيمى يجعل الغاية الأخلاقية هي الضابط الأعلى للسلوك. فالفعل في المنظور الإسلامى ليس استجابة ميكانيكية، بل اختيارٌ غائى يعكس وعي الإنسان بمقصده ومسؤوليته.

رابعاً: المستويات المقاصدية الأربعة لتفسير السلوك

يمكن تحليل السلوك الإنسانى في ضوء المقاصد عبر أربعة مستويات تفسيرية متكاملة:

1. المستوى الغائى (الهدف):

ويتعلق بغاية الفعل النهائية؛ فصلاح السلوك مرتبط بمدى تحقيقه للمصلحة ودفعه للمفسدة،

وهو ما عبّر عنه النبي ﷺ بقوله: «إنما الأعمال بالنيات» (رواه البخاري)²⁸.

2. المستوى الوسيطى (المنهج):

يُعنى بشرعية الوسائل المستخدمة لتحقيق المقصد؛ إذ لا تبرر الغاية الوسيلة في الإسلام.

فالوسيلة يجب أن تكون أخلاقية ومنضبطة بالمصلحة الشرعية.

3. المستوى القيمى (المعيار):

²⁷ محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعى في الإسلام (تونس: الدار التونسية، 1984)، ص 121.

²⁸ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 1.

يرتبط بالقيم الضابطة للسلوك مثل الإخلاص والعدل والرحمة، وهي مقاييس تفسيرية تبين دوافع الفعل الداخلية.

4. المستوى الاجتماعي (الأثر):

يُقاس السلوك في هذا المستوى بمدى أثره في تحقيق المصلحة العامة واستقرار المجتمع؛ فالفرد في الرؤية المقاصدية جزء من منظومة أخلاقية وإنسانية أوسع²⁹

هذه المستويات الأربعة تشكّل معا بنية تفسيرية تجعل من المقاصد أداة لتحليل الفعل الإنساني من حيث النية، الوسيلة، القيمة، والأثر.

خامساً: المقاصد والتكامل بين الوحي والعقل والتجربة

تمثل المقاصد الشرعية نقطة الالتقاء بين مصادر المعرفة الثلاثة في الإسلام:

- الوحي مصدر الهداية والمبدأ.
- العقل أداة الفهم والتحليل.
- التجربة ميدان التحقق العملي.

فالوحي يقدّم القيم الكلية، والعقل يترجمها إلى أنظمة سلوكية، والتجربة تختبرها في الواقع. يقول الإمام الشاطبي:

"إن الشريعة جاءت لحفظ مقاصدها في الخلق، وذلك بالحفاظ على نظام حياتهم واستدامة صلاحه."³⁰ وهكذا يتحقق التكامل بين الإلهام والبرهان والعمران، أي بين البعد الروحي والعقلي والعملي، وهو ما يجعل المقاصد إطاراً معرفياً وتطبيقياً في آن واحد.

سادساً: المقاصد كأساس لبناء علم نفس إسلامي

يُعدّ المنظور المقاصدي أحد أكثر الأطر الفكرية قدرة على تأسيس علم نفس ديني إسلامي معاصر، لأنه يجمع بين الشمول القيمي والدقة العلمية. ويمكن تحديد خصائص هذا العلم في أربعة أبعاد رئيسية:

²⁹ الشاطبي، الموافقات، ج 2، ص 8.

³⁰ الشاطبي، الموافقات، ج 2، ص 9.

1. البعد القيمي: يجعل المقصد الأخلاقي محور الفعل والسلوك.

2. البعد الروحي: يربط بين التزكية الداخلية والتوازن النفسي الخارجي.

3. البعد الاجتماعي: يدمج الفرد في منظومة الجماعة والإنسانية.

4. البعد المعرفي: يوحد بين الفهم العقلي والهداية الوحيية.

ومن ثمّ، فإن المقاصد لا تفسّر السلوك الإنساني فحسب، بل توجّهه وتقيّمه، فتتحول من مفهوم فقهيّ إلى نموذج معرفيّ قادر على إنتاج معرفةٍ جديدةٍ حول الإنسان، تقوم على التوازن بين العلم والإيمان، والتجريب والقيمة، والغاية والوسيلة³¹

جدول (1): العلاقة التكاملية بين الدوافع النفسية والغايات المقاصدية ومستويات السلوك الإنساني

الوظيفة التفسيرية في النموذج التكاملي	المستوى السلوكي المقابل	الغاية المقاصدية المقابلة	الدافع النفسي
يفسّر استجابات الإنسان لحاجات البقاء بوصفها جزءاً من التكليف الإلهي في عمارة الأرض.	المستوى الغريزي - الفسيولوجي	حفظ النفس والمال	دافع البقاء والأمن
يفسّر السلوك الاجتماعي ضمن إطار المودة والرحمة والتكافل باعتبارها مقاصد شرعية.	المستوى الاجتماعي	حفظ النسل والمجتمع	دافع الانتماء والعلاقات
يفسّر السلوك العقلي والبحثي كفعل عبادي لتحقيق الاستخلاف في المعرفة.	المستوى المعرفي	حفظ العقل	دافع المعرفة والبحث عن

³¹ عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة (الدوحة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2018)، ص 189.

النموذج التفسيري التكاملي للسلوك الإنساني في ضوء المقاصد الإسلامية: مقارنة نقدية في علم النفس الديني

الوظيفة التفسيرية في النموذج التكاملي	المستوى السلوكي المقابل	الغاية المقاصدية المقابلة	الدافع النفسي
			الحقيقة
يفسّر السلوك التعبدية والأخلاقي	المستوى الروحي - الأخلاقي	حفظ الدين	دافع المعنى والسموّ الروحي
يفسّر السلوك الإبداعي والجمالي بوصفه	المستوى القيمي - الجمالي	التحسينات والمصالح العامة	دافع الإنشقاق والجمال

المبحث الرابع: المقارنة النقدية بين النموذج التفسيري المقاصدي والنظريات الغربية في تفسير السلوك الإنساني

أولاً: مدخل عام إلى المقارنة

تُعد المقارنة بين النموذج المقاصدي والنظريات الغربية في تفسير السلوك الإنساني من القضايا المركزية في بناء علم نفس إسلامي معرفي، لأنها تكشف عن اختلاف المرجعية المعرفية (Epistemology)، والمنهج التفسيري (Methodology)، والغاية النهائية للسلوك (Teleology) فالنموذج الغربي - في أغلب مدارسه - ينطلق من مرجعية مادية علمانية، بينما ينطلق النموذج المقاصدي من مرجعية توحيدية غائية ترى الإنسان كائنًا ذا هدفٍ أخلاقي وروحي³².

ثانياً: مقارنة في الأسس الفلسفية والمعرفية

النموذج المقاصدي التفسيري	النموذج الغربي	المجال
الإنسان خليفة مكرم ذو روح وعقل، يسعى لتحقيق غاية وجودية مرتبطة بالعبودية لله.	الإنسان كائن بيولوجي-نفسى يتفاعل مع بيئته وفق قوانين علمية قابلة للقياس.	رؤية الإنسان

³² عبد الرحمن بدوي، الزمان الوجودي عند هايدغر (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979)، ص 33.

النموذج المقاصدي التفسيري	النموذج الغربي	المجال
الوحي والعقل والتجربة مصادر متكاملة في إدراك الحقيقة.	العقل والتجربة هما المصدران الوحيدان للمعرفة.	المرجعية المعرفية
تحقيق المقاصد العليا: حفظ الدين، النفس، العقل، النسل، والمال، في توازن روحي ومادي.	التكيف والبقاء وتحقيق اللذة أو الاتزان النفسي.	الغاية النهائية للسلوك
الثبات القيمي المرتكز على مقاصد الشريعة ومبدأ المصلحة الشرعية.	النفعية أو النسبية الأخلاقية.	المعيار القيمي

يتضح من المقارنة أنّ النموذج المقاصدي لا ينفي المنهج التجريبي، بل يُدرجه ضمن نظام معرفي غائي يجعل السلوك الإنساني فعلاً ذا معنى وغاية، لا مجرد استجابة شرطية أو تكيف بيولوجي³³.

ثالثاً: نقد النموذج السلوكي والنفسي الغربي

1. النموذج السلوكي: (Behaviorism)

يفسّر السلوك بوصفه استجابة لمنبه خارجي، ويُقصي الإرادة والنية والمعنى³⁴. بينما يؤكد النموذج المقاصدي أن النية والمقصد هما جوهر السلوك؛ فالفعل لا يُقاس بنتيجته فقط، بل بغاياته الأخلاقية³⁵.

2. النموذج التحليلي: (Psychoanalytic)

يرى فرويد أنّ الإنسان تحكمه غرائز اللاشعور والرغبة الجنسية، وهو تصور اختزالي يتجاهل البعد الروحي والاختياري للإنسان.

³³ محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام (تونس: الدار التونسية، 1984)، ص 89.

³⁴ سكر، العلم والسلوك الإنساني، ترجمة عبد العزيز القوصي (القاهرة: دار المعارف، 1982)، ص 45.

³⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 1.

3. أما النموذج المقاصدي فيرى أن الغريزة جزء من نظام إنساني متوازن، تُهذبها القيم والمقاصد، فلا تُلغى ولا تُطلق دون ضابط³⁶.

4. النموذج الإنساني: (Humanistic)

قدّم ماسلو تصوراً متدرجاً للحاجات، لكنه جعل القمة في تحقيق الذات (Self-Actualization) دون بعدٍ روحي.

5. بينما النموذج المقاصدي يجعل تحقيق العبودية لله هو قمة سلم الحاجات، لأنها تضمن التكامل بين الوجود النفسي والروحي³⁷.

رابعاً: المقاصد وإعادة بناء المنهج التفسيري

يتميّز النموذج المقاصدي بقدرته على الجمع بين المنهج التجريبي والتحليل الغائي، فهو لا يرفض أدوات العلم النفسي الحديثة، بل يُعيد توجيهها نحو غاية أخلاقية وإنسانية. فبينما ينطلق النموذج التجريبي من السؤال: كيف يحدث السلوك؟ ينطلق النموذج المقاصدي من السؤال الأعمق: لماذا يحدث السلوك؟ وما غايته؟ وهذا التحول من "السببية" إلى "الغاية" يجعل المقاصد إطاراً تفسيرياً أكثر تكاملاً، لأنها لا تكتفي بوصف الظاهرة، بل تربطها بمقاصدها الوجودي.

فالمصلحة والمفسدة ليستا مجرد نتائج، بل معايير تفسيرية تُمكن الباحث من تحليل الاتجاهات السلوكية في ضوء أثارها على النفس والمجتمع³⁸.

خامساً: التكامل بين المقاصد والنظريات العلمية

لا يهدف النموذج المقاصدي إلى نفي المنجز العلمي الغربي، بل إلى تأصيله ضمن إطار معرفي أوسع. فيمكن إدماج عناصر من نظرية التعلم (Learning Theory) أو نظرية الدوافع (Motivation Theory)

³⁶ فرويد، تفسير الأحلام، ترجمة مصطفى صفوان (بيروت: دار النهار، 1977)، ص 98.

³⁷ ماسلو، نحو علم نفس الكينونة، ترجمة عبد العزيز حمودة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1988)، ص 121.

³⁸ الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج 2، ص 10.

داخل البنية المقاصدية بشرط إعادة ضبطها بالقيم والغايات الشرعية. فمثلاً، يمكن تفسير التعلم في ضوء مقصد "حفظ العقل"، وتفسير الدافع في ضوء مقصد "حفظ النفس" و"تحقيق الكرامة الإنسانية"³⁹.

بهذا يصبح النموذج المقاصدي نظاماً تكاملياً مفتوحاً، لا يُقصي العلم، بل يُعيد تعريفه من داخل الرؤية الإسلامية للإنسان والعالم.

سادساً: المزايا المنهجية للنموذج التفسيري المقاصدي

1. الشمول: يجمع بين البعد المادي والروحي والاجتماعي.

2. الغائية: يربط الفعل بالغاية لا بالمثل فقط.

3. الأخلاقية: يجعل القيمة معياراً علمياً للتحليل.

4. الإنسانية: يعيد الاعتبار للكرامة والاختيار والمسؤولية.

5. الواقعية: يدمج النص والتجربة في تفسير الظاهرة السلوكية.

هذه الخصائص تجعل منه نموذجاً قادراً على تصحيح الاختزال النفسي الغربي، وتأسيس علم نفس متكامل يتجاوز الثنائية بين الدين والعلم.

المبحث الخامس: التطبيقات العملية للنموذج التفسيري المقاصدي

أولاً: من النظرية إلى النموذج التفسيري التطبيقي

إنّ القيمة العلمية لأي نموذج لا تتحقق إلا بقدر قدرته على التحليل والتوجيه والتقويم في الواقع الإنساني. ولذلك يسعى هذا البحث إلى ترجمة النموذج التفسيري المقاصدي إلى أداة عملية يمكن توظيفها في مجالات متعددة مثل: التربية، والإرشاد النفسي، والتنمية الأخلاقية، والسياسات الاجتماعية⁴⁰.

ثانياً: في مجال التربية

³⁹ عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة (الدوحة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2018)، ص 201.

⁴⁰ عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة (الدوحة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2018)، ص 225.

يُعد المجال التربوي البيئة الأكثر ملاءمة لتطبيق النموذج المقاصدي، لأنه مجال يتعامل مع بناء الإنسان لا بزمجته. فالمقاصد يمكن أن تتحول إلى منهج تربوي قيم يوجه العملية التعليمية عبر ثلاثة مستويات:

1. مستوى الغاية: ترسيخ مقصد حفظ الدين والعقل بتربية المتعلم على التفكير النقدي والإيمان الواعي.

2. مستوى الوسيلة: ربط المعرفة بالعمل، والمهارة بالقيمة، فلا ينفصل العلم عن الأخلاق.

3. مستوى الأثر: قياس نجاح العملية التربوية بمقدار ما تُنتج من وعي بالمسؤولية الاجتماعية والروحية⁴¹.

بهذا يتحول التعليم من نقل للمعلومات إلى تنمية للغايات، ومن التلقين إلى التكوين.

ثالثاً: في مجال علم النفس والإرشاد

يقدم النموذج المقاصدي منظورا جديدا للعلاج النفسي، أساسه أن الإنسان لا يُشفى فقط حين يُدرك ذاته، بل حين يُعيد توجيه ذاته نحو مقصدها⁴² الأسى

فالمقاصد تُعيد ترتيب الدوافع، وتمنح الفعل النفسي بُعدا روحانيا يعيد التوازن بين الجسد والعقل والروح.

يمكن تطبيق النموذج في العلاج النفسي عبر خطوات عملية:

1. تحليل المقصد الشخصي: تحديد الغايات الحاكمة لسلوك الفرد.

2. إعادة التوجيه: تحويل المقاصد الأنانية أو المنحرفة إلى غايات إيجابية.

3. الموازنة بين الحاجات: ضبط العلاقة بين الضروري والتحسيني.

4. التزكية والتقويم: دعم الإرادة الأخلاقية عبر الإيمان والعبادة والمراجعة الذاتية⁴³.

⁴¹ يوسف القرضاوي، التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا (القاهرة: دار الشروق، 1998)، ص 53.

⁴² عبد الكريم بكار، التوازن النفسي في ضوء القرآن والسنة (الرياض: دار المسلم، 2004)، ص 62.

⁴³ محمد راتب النابلسي، مقاصد الشريعة في ضوء علم النفس الإيماني (دمشق: دار الفكر، 2019)، ص 97.

رابعاً: في المجال الاجتماعي

على الصعيد الاجتماعي، يُسهم النموذج المقاصدي في بناء منظومة قيمية للتنمية البشرية تستند إلى المصلحة العامة والتكافل والعدالة.

فمقاصد حفظ النفس والعقل والمال تُترجم عملياً في سياسات الرعاية والتعليم والعمل، بحيث يصبح الهدف الأسى هو تحقيق الكرامة الإنسانية كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]. فالمجتمع الذي تُبنى مؤسساته على أساس مقاصدي، يتحول من منظومة استهلاكية إلى نظام قيمي منتج للمعنى، ويصبح السلوك الجماعي تعبيراً عن إرادة أخلاقية جماعية⁴⁴.

خامساً: في المجال الإداري والقيادي

في إدارة المؤسسات، يقدم النموذج المقاصدي رؤية جديدة للقيادة بوصفها أمانة ومقصداً، لا سلطة وهيمنة. فالقرار الإداري يُقيّم بمقدار اتساقه مع المقاصد العليا للشريعة: أي تحقيق العدالة والمصلحة العامة، ومنع الضرر، وحفظ كرامة الإنسان⁴⁵. ومن ثم، فإن تطبيق المقاصد في الحوكمة يخلق توازناً بين الكفاءة والإيمان، وبين الأداء والمسؤولية، ويعيد تعريف "النجاح المؤسسي" من كونه تحقيقاً للأرباح إلى كونه تحقيقاً للغايات الإنسانية والتنمية.

سادساً: آفاق البحث المستقبلي

يُعد هذا النموذج خطوة تأسيسية أولى نحو بناء علم تفسيري مقاصدي متعدد التخصصات يمكن أن يُدمج في مجالات:

- علم النفس الديني،
- الفلسفة الأخلاقية الإسلامية،
- السياسات العامة المستندة إلى المقاصد.

⁴⁴ الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية (تونس: دار السلام، 2012)، ص 165.

⁴⁵ محمد بلتاجي، القيم الأخلاقية في الإدارة الإسلامية (القاهرة: دار السلام، 2017)، ص 132.

فكل هذه المجالات يمكن أن تستفيد من المقاصد بوصفها منهجاً في التفكير وفهم الإنسان، لا مجرد أداة
فقهية⁴⁶.

الخاتمة

خلص البحث إلى أن النموذج التفسيري المقاصدي للسلوك الإنساني يقدم تصوراً معرفياً جديداً يجمع
بين أصالة الوحي ودقة العلم التجريبي. وقد أظهر التحليل أن هذا النموذج يتميز عن النظريات الغربية بما
يلي:

1. شموليته المعرفية: جمع بين الوحي والعقل والتجربة.
2. غائيته الأخلاقية: جعل الغاية معياراً تفسيراً للسلوك.
3. اتساقه القيمي: قدم منظومة متكاملة تضبط الدوافع وتوجهها نحو الصلاح.
4. قابليته للتطبيق في التربية، والعلاج النفسي، والإدارة، والتنمية الاجتماعية.

كما أثبتت الدراسة أن المقاصد يمكن أن تتحول من مفهوم فقهي إلى نموذج علمي تفسيري، قادر على
إعادة بناء علم النفس الإنساني على أسس توحيدية غائية، وأنها بذلك تمثل نواة لثورة معرفية إسلامية
في فهم الإنسان وسلوكه.

قائمة المراجع والمصادر:

المصادر والمراجع (بالعربية)

- ابن عاشور، محمد الطاهر. *أصول النظام الاجتماعي في الإسلام*. تونس: الدار
التونسية للنشر، 1984.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. *مقاصد الشريعة الإسلامية*. تونس: دار السلام، 2012.
- ابن بيه، عبد الله. *فقه الموازنات*. أبو ظبي: مجمع الفقه الإسلامي، 2015.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. *صحيح البخاري*. تحقيق محمد زهير بن ناصر
الناصر. بيروت: دار طوق النجاة، 1422 هـ.

⁴⁶ طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1997)، ص 91.

- البلتاجي، محمد. *القيم الأخلاقية في الإدارة الإسلامية*. القاهرة: دار السلام، 2017.
- بدوي، عبد الرحمن. *الزمان الوجودي عند هايدغر*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979.
- بن عاشور، محمد الطاهر. *مقاصد الشريعة الإسلامية*. تونس: دار السلام، 2012.
- بن بيه، عبد الله. *فقه الموازنات*. أبو ظبي: مجمع الفقه الإسلامي، 2015.
- بكار، عبد الكريم. *التوازن النفسي في ضوء القرآن والسنة*. الرياض: دار المسلم، 2004.
- الجصاص، أحمد بن علي. *أحكام القرآن*. بيروت: دار الكتب العلمية، 1994.
- القرضاوي، يوسف. *التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا*. القاهرة: دار الشروق، 1998.
- النابلسي، محمد راتب. *مقاصد الشريعة في ضوء علم النفس الإيماني*. دمشق: دار الفكر، 2019.
- النجار، عبد المجيد. *مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة*. الدوحة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2018.
- الفاسي، علال. *مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها*. الرباط: دار الغرب الإسلامي، 1993.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى. *الموافقات في أصول الشريعة*. تحقيق عبد الله دراز. بيروت: دار المعرفة، 1997.
- سكر، ب. ف. *العلم والسلوك الإنساني*. ترجمة عبد العزيز القوسي. القاهرة: دار المعارف، 1982.
- طه عبد الرحمن. *العمل الديني وتجديد العقل*. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1997.
- فرويد، سيغموند. *تفسير الأحلام*. ترجمة مصطفى صفوان. بيروت: دار النهار، 1977.

- ماسلو، أبراهام نحو علم نفس الكينونة. ترجمة عبد العزيز حمودة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1988.

REFERENCES

- Ibn 'Āshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. *Uṣūl al-nizām al-ijtimā'ī fī al-Islām*. Tunis: al-Dār al-Tūnisiyya lil-Nashr, 1984.
- Ibn 'Āshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. *Maqāṣid al-Sharī'a al-Islāmiyya*. Tunis: Dār al-Salām, 2012.
- Ibn Bayyah, 'Abd Allāh. *Fiqh al-Muwāzanāt*. Abu Dhabi: Islamic Fiqh Academy, 2015.
- Al-Bukhārī, Muḥammad ibn Ismā'īl. *Ṣaḥīḥ al-Bukhārī*. Ed. Muḥammad Zuhayr ibn Nāṣir al-Nāṣir. Beirut: Dār Ṭawq al-Najāh, 1422 AH.
- Al-Biltājī, Muḥammad. *Al-Qiyam al-Akhlāqiyya fī al-Idāra al-Islāmiyya*. Cairo: Dār al-Salām, 2017.
- Badawī, 'Abd al-Raḥmān. *Al-Zamān al-Wujūdī 'inda Heidegger*. Beirut: al-Mu'assasa al-'Arabiyya lil-Dirāsāt wa al-Nashr, 1979.
- Bakkār, 'Abd al-Karīm. *Al-Tawāzun al-Nafsī fī Ḍaw' al-Qur'ān wa al-Sunna*. Riyadh: Dār al-Muslim, 2004.
- Al-Qaraḍāwī, Yūsuf. *Al-Tarbiyya al-Islāmiyya wa Madrasat Ḥasan al-Bannā*. Cairo: Dār al-Shurūq, 1998.
- Al-Nābulusī, Muḥammad Rātib. *Maqāṣid al-Sharī'a fī Ḍaw' 'Ilm al-Nafs al-Īmānī*. Damascus: Dār al-Fikr, 2019.

- Al-Najjār, ‘Abd al-Majīd. *Maqāṣid al-Sharī‘a bi-Ab‘ād Jadīda*. Doha: International Institute of Islamic Thought, 2018.
- Al-Fāsī, ‘Allāl. *Maqāṣid al-Sharī‘a al-Islāmiyya wa Makārimuhā*. Rabat: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1993.
- Al-Shāṭibī, Ibrāhīm ibn Mūsā. *Al-Muwāfaqāt fī Uṣūl al-Sharī‘a*. Ed. ‘Abd Allāh Darrāz. Beirut: Dār al-Ma‘rifa, 1997.
- Skinner, B.F. *Science and Human Behavior*. Translated by ‘Abd al-‘Azīz al-Qūṣī. Cairo: Dār al-Ma‘ārif, 1982.
- Ṭāhā ‘Abd al-Raḥmān. *Al-‘Amal al-Dīnī wa Tajdīd al-‘Aql*. Casablanca: al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, 1997.
- Freud, Sigmund. *Tafsīr al-Aḥlām (The Interpretation of Dreams)*. Trans. Muṣṭafā Ṣafwān. Beirut: Dār al-Nahār, 1977.
- Maslow, Abraham. *Toward a Psychology of Being*. Trans. ‘Abd al-‘Azīz Ḥamūda. Cairo: Anglo-Egyptian Library, 1988.